الخيل والفرس فی ديوان المتنبی

مريم صاعد واقفی*

الملخص

تدخل أسماء الحيوانات، وأوصافها فی دواوين الشعراء تارة لوصف الحيوان، وتارة لأغراض أخرى، وللفرس مكانة سامية عند الشعراء، خاصة عند المتنبی فی المدح، والفخر. إن المتنبی من أهم الشعراء الذين استفادوا من الفرس فی مفاخراته، ومدائحه. تصدی هذا المقال ليدرس الفرس فی شعر المتنبی، ولهذا الغرض يدرس من خلال مدائحه، وفخرياته، حالات مختلفة من الخيول، كالأوصاف الجسمية، والظاهرية للحيوان، وحركة الخيول على أجساد القتلی، وانسكاب دماء القتلی، كالأنهار على أبدان الخيول، وحالات التقاء الخيول، والجيوش، مع توصيف قدرتها ومقاومتها أمام عدد الجيوش، والغبار المتراكم الذی يصعد من حوافر الخيل خلال ساحة المعركة، وحالات الخيول، وحركاتها فی الدماء وعلى الجثث.

الكلمات‌الدليلية: الخيل، الفرس، الوصف، المتنبی.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فی إسلامشهر.

تاريخ الوصول: ١٣٨٩/١/١٨هـ. ش تاريخ القبول: ١٣٨٩/٧/١٠هـ. ش

المقدمة

للفرس الجواد فی الثقافة العربیة صفات معینة عالیة، تکون ذات قیمة عند العرب کسرعة العدو، وقصر الشعر، والنشاط، والحبوبة، والذکاء، و... إلخ.

وفی هذا المجال، نستعرض قسماً من هذه الخصوصیات من دیوان الشاعر الشهیر أبی طیب المتنبی، و ندرس فیها.

جدیر بالذکر أن مدح الخیل لیس رأی المتنبی، و غایته الأصلیة، عندما یصف هذا الحیوان؛ بل الشاعر یجعل الفرس دائماً کأدات لمدح ممدوحیه، وکذلک بالغ فی مدح بطولة الفرسان، کما بالغ فی وصف حالات الخیول فی ساحات القتال، وهو فی هذا المجال یتمیز بالدقة والظرافة.

نری فی دیوان المتنبی خصوصیات، وحالات بدیعة مختلفة للفرس، خاصة خلال قصائد المدح، والفخر، ومؤلف هذه المقالة، یذکر بعض هذه التوصیفات، محاولة أن یدرس الموضوعات التالیة:

ذکر بعض العلامات الجسمیة، والظاهریة للحیوان والتی قد ذکرها المتنبی فی دیوانه؛ کتصویر حالات الفرس من خلال وصف ساحات المعارک، ووصف حرکة الخیول علی أجساد القتلی وعلی دمائهم، ومن الملاحظ أن الخیل وسیلة لمدح ممدوحیه.

الف) ذکر العلامات الجسمیة والظاهریة للحیوان

بعض العلامات فی الفرس تدل علی أصالة الحیوان، ونجابته؛ کسرعة العدو، والنشاط، والحیویة، وقصر الشعر، وحالة الحوافر، وذکاء الحیوان، وشعوره فی بعض المواقف، ومواضعه الموجودة فی أطرافه.

وکل هذه الصفات التی تدّل علی أصالة الحیوان، ونجابته موجودة فی بعض أشعار المتنبی.

إنّ الشـــاعر يعرض (يبين) فى أبياته الشعرية، الفرس الأصيل الذى لا نظير له، وهذا يختصّ بالمدح، لأنّه للمدوح الشجاع الذى يليق بالمدح.

يعلم الشـــاعر أن حالة الفرس مهّم جدا، وهى عامل مؤثّر فى ســـرعته؛ ومن أهمّ الحركات التى أشـــار المتبنى فى ديوانه هى: التقريب، والجرى، والشد، والخبّ.[1]

أما التقريب فى عدو الفرس، فهو أن يرجم الأرض بيديه؛ وهما ضربان؛ التقريـــب الأدنى، وهو الإرخـــاء، والتقريب الأعلى، وهـــو الثعلبية، وقيل: التقريـــب ضرب من العدو. يقال: قرب الفـــرس إذا رفع يديه معاً ووضعها معاً، فى العدو؛ وهو دون الحضر. وقرب الفرس، يقرب تقريباً إذا عدا عدوا دون الإسراع. (ابن منظور، ١٩٩٠م، ج١: ٦٦٦)

أما الشد فمعناه الحضر والعدو، والفعل اشتدّ أى عدا. وقال ابن رميضٍ العنبرى، ويقال رميص، بالصاد المهملة:

هذا أوان الشّدّ فاشتدّى زيم

وزيم: اسم فرسه؛ وفى حديث الحجاج:

هذا أوان الشّدّ فاشتدّى زيم

هو اسم ناقته أو فرسه. وفى حديث القيامة، كحضر الفرس، ثمّ كشدّ الرجل الشديد العدو. (المصدر نفسه، ج٣: ٢٣٤)

يقول المتنبى فى مدح الكافور:

فكن فى اصطناعى محسناً كمجرّب

يبـــن لک تقريـــب الجواد وشـــدّه

اصطنعه بمعنى اختاره موضعاً لصنيعته: أى برّه ومعروفه.

والتقريب والشدّ: ضربان من جرى الخيل. قال ابن جنى: أى جهّر بنى

١. التقريب، الشد، والجرى: كلها تدّل على سرعة العدو فى الفرس؛ ولكن فى معانيها اختلافات طريفة.

ليظهر لک صغير أمری وکبيره؛ فإما اصطنعتنی، وإما رفضنی، فلا فضل بينی وبين غيری إذا لم تجربنی.

وقال الواحدی: جبرينی فی اصطناعک إياى، ليتبين لک أنی موضع للصنيعة، فبالتجربة يعرف الفرس، وأنواع جريه من التقريب والشّد. (البرقوقی، ۲۰۰۷ م، ج۱: ۳۲۷)

وقال المتنبی فی مدح کافور:

وجدت أنفع مال کنت أذخره ما فی السوابق من جری وتقريب

يقول الشاعر: إنی وجدت ما فی الخيل من عدو أنفع الأشياء التی ادخرتها، لأنها حملتنی إلی کافور، وأخرجتنی من بين الغادرين بی. فالسوابق: الخيل، والتقريب: ضرب من العدو کما ذکرنا. (البرقوقی، ۲۰۰۷م، ج۱: ۱۸۷)

الخبّ: يقال خبب، والخبب: ضرب من العدو؛ وقيل: هو مثل الرَّمل. وقيل: هو أن ينقل الفرس أيامنه جميعاً، وأياسره جمعا؛ وقيل: هو أن يراوح بين يديه ورجليه، وکذلک البعير؛ وقيل الخبب: السرعة؛ وقد خبَّت الدّابة تخبّ بالضَّمّ، خبّا، وخبيبا، وخبيبا، واختبت، حکاه ثعلب، وأنشد:

مذکرة الثُّنيا، مساندة القری جمالية تختــبّ ثمّ تنيب

(ابن منظور، ۱۹۹۰م، ج۱: ۳۴۱)

يقول المتنبی:

فبــت ليالیــاً لانــوم فيها تخبّ بک المسومة العراب

خبّ الفرس: أسرع؛ وقيل: الجنب أن يثقل الفرس أيامنه جميعا وأياسره جميعا، وقيل: هو أن يراوح بين يديه، ورجليه، وکذلک البعير؛ والمسوّمة الخيل، المعلمة بعلامات تعرف بها: وقال أبو زيد فی قوله تعالی: (والخيل المسومّة) (آل عمران: ۱۴)، الخيل المسومة، المرسلة وعليها ربانها، وهو من قولک: سومت فلاناً وإذا خليته، وسومه، أی وما يريد؛ والعراب العربية.

يقول: تعدو بک الخيل العربية المعلمة فى طلبهم لاتعرف النوم. (البرقوقى، ٢٠٠٧م، ج١: ١٣٢)

ب) تصوير حالات الفرس من خلال وصف ساحات المعارک

يصف المتنبى حالات مختلفة من الخيول، كحركة الخيول على أجساد القتلى، وانسكاب دماء القتلى كالأنهار على أبدان الخيول، وحالات التقاء الخيول والجيوش مع توصيف قدرتها، ومقاومتها أمام عدد الجيوش، والغبار المتراكم الذى يصعد من حوافر الخيل خلال ساحة المعركة، وحالات الخيول، وحركاتها فى الدماء وعلى الجثث.

وهنا نستعرض بعض هذه العناوين وأهمّها.

١. حركة الخيول على أجساد القتلى وعلى الدماء.

أكثر استفادة المتنبى من معنى الخيل فى ديوانه، يختصّ بتوصيفاته لساحات المعارک، وتجلياتها الخاصّة، ومن أروع وأبدع الحالات التى تمثل الشاعر فى ديوانه، هى تصوير حالات المعارک، وحركة الخيول على أجساد القتلى، وفى دمائهم، انسكاب دماء القتلى كالأنهار على أبدان الخيول، وعدوها السريع خلال الحروب، بحيث يصعد الغبار من هذه الحركات السريعة:

حتّى انتهى الفرس الجارى وما وقعت

فى الأرض من جثث القتلى حوافره

يقول: حتى بلغ فرسه نهاية جريه، ولم تقع حوافره على أديم الأرض لكثرة القتلى، وإنما وطىء أجسادهم، ويروى بدل جثث: جيف. (البرقوقى، ٢٠٠٧م، ج١: ٣٨٧)

كأن خيولنا كانــت قديماً تسقّى فى قحوفهم الحليبا

فمــرّت غير نافــرة عليهم تدوس بنا الجماجم والتريبا

القحوف: جمع قحف ـ بكسر القاف ـ وهو العظم الذی فوق الدماغ؛ والجمجمة: العظم الذی فيه الدماغ؛ والترتيب: عظم الصدر، والجمع: الترائب: موضع القلادة من الصدر. يقول: كأنّ خيلنا كانت فی صغرها تسقی اللبن فی أقحاف رؤوسهم، فألفتهم حتی صارت تدوس جماجهم، وصدورهم، ونحن عليها لاتنفر منهم.وقد جرت عادة العرب بأن تسقی اللبن كرام خيولها. (المصدر نفسه: ۱۶۸)

إذا أنعلن فـــی آثار قومٍ و إن بعدوا جعلنهم طراقاً

إنعال الخيل: تصفيح أيديها بالحديد، والطراق: نعل تحت نعل. يقول: إذا أنعلت خيله لقصد قومٍ، أدركتهم فداستهم بحوافرها، حتی تصير جلودهم، ولحومهم طراقاً لنعالها، وإن بعد المطلوبون. (المصدر نفسه، ج۲: ۸)

أجلتها مـــن كل طاغٍ ثيابه ومؤطئها من كل باغ ملاغمه

الأجلة ـ جمع جل ـ ما يجعل علی ظهر الدابة؛ والملاغم ما حول الفم مما يبلغه اللسان ويصل إليه: جمع ملغم. قال بعض اللغويين: الملاغم من كل شیء، الفم والأنف والأشداق، وذلک أنها تلغم بالطيب، وفی الإبل بالزيد، وتلغمت المرأة بالطيب: جعلته فی الملاغم. والمغلم يشبه أن يكون مفعلاً من لغام البعير ـ وهو زبده ـ سهی بذلک لأنه موضع اللغام. وقيل لأعرابی:

متی السير؟ فقال: تلغموا بيوم السبت. أی: اذكروه يوم السبت. واشتقاقة من أنهم يحركون ملاغمهم بذكره يوم الســـبت. يقول: إنه يسلب ثياب كلّ طاغ من ملوک الروم فيتخذ منها أجلة لخيله، ويوطیء حوافرها وجه كل باغ فيهم. (المصدر نفسه: ۲۷۲)

أری دون ما بين الفرات وبرقة ضراباً يمشی الخيل فوق الجماجم

الفرات المجهز المعروف؛ وبرقة: قرية فی العراق. يقول: أری دون وصول الأعداء إلی هذا الموضع محاربة بالسيوف، يكثر فيها قطع الرؤوس

حتى تطأها الخيل، فتمشى فوق جماجم القتلى.

٢. وصف الغبار فى ساحات القتال

ذكرنا أنّ تصوير حالات المعارك، وحركة الخيول على جسمان وفى دمائهم، وعدوها السريع خلال الحروب، بحيث يصعد الغبار من هذه الحركات السريعة، من أبدع الحالات التى تمثّل الشاعر فى ديوانه.

خرجن من النّقع فى عارضٍ ومن عرق الرّكض فى وابل

النقع: الغبار؛ والعارض: السحاب؛ والوابل: المطر الكثير؛ وخرجن أى الخيل. يقول: خرجت الخيل للحرب، فكانت من الغبار فى سحاب ومن العرق فى مطر. (المصدر نفسه: ج٢: ٧٩) يستعمل الشاعر هنا من صنعة التجريد باستعمال كلمة من.

فى جحفل ستر العيون غباره فكأنمـا يبصـرن بـالآذان

الجحفل: الجيش العظيم. وفى جحفل: حال من الجياد. يقول: قاد خيله فى جيش عظيم قد تكاثف غباره حتى ستر العيون؛ فلاتبصر فيه الخيل مع صدق حاسة نظرها؛ ولكنها إذا أحست شيئاً نصبت آذانها، فكأنها تبصر بآذانها، وهذا من بديع التخيل. (المصدر نفسه: ٤٣٣)

تثير على سلمية مسبطرا تناكر تحته لولا الشعار

سلمية: موضع، والمسبطر: الغبار الممتد؛ والشعار العلامة يتعارفون بها؛ يقول: تثير خيلک على هذا المكان ـ سلمية ـ غباراً منتشراً لاتعرف الخيل تحته بعضها بعضاً، أى صاحب الخيل. أى الجيش لولا العلامة التى تتعارف بها. فقوله: تناكر ـ بحذف إحدى التاءين ـ أى الخيل. (المصدر نفسه، ج١: ٣٧٥)

عجاجاً تعثر العقبان فيه كأن الجّو وعث أو خبار

عجاجا: بدل من مسبطرا، والعجاج: الغبار. والوعث من الأرض: السهل الكثير الرمل، وهو ما تغيب فيه القوائم لسهولته.

والخبار: الأرض النية الرخوة. يصف الغبار بالكثافة؛ يقول: إنّ العقبان التى تثير مع الجيش تعثر فى ذلک الغبار وكثافته، فكأن الجوّ أرض لينة تغوص فيها أرجل الطير، فتعثر لكثرة ما ارتفع من غبار الخيل وكثافته.

عقدت سنابكها عليها عثيراً لو تبتغـى عنقاً عليه أمكنا

السنابک: جمع سنبک، وهو طرف مقدم الحافر والعثير: الغبار. والعنق: ضرب من السير عليه سريع. يقول: عقدت سنابک الخيل فوقها غباراً كثيفاً، لو طلب السير عليه لأمكن من كثافته. (المصدر نفسه، ج۲: ۴۴۹)

يبين المتنبى النقع الذى تظهر الخيول فى حو المعارک من أثر التقاء حوافرها بالأرض، بالجمال وهذه هى الملحمة التى حاوى المتنبى أن يخلق بالدّفة.

۳. التصاوير النهائية من الحروب

يصور المتنبى دائماً التصاوير النهائية من الحروب كذا: الصمت الحزين المطبق، والخيول الفاتحة المتبخترة التى تمشى على القتلى، مغطين بدمائهم وغبار ساحات المعارک، مصعدين على الأرض ذليلين.

حتى انتهى الفرس الجارى وماوقعت

فى الأرض من جثث القتلى حوافره

يقول: حتى بلغ فرسه نهاية جارية، ولم تقع حوافره على أديم الأرض لكثرة القتلى، وإنّما وطىء أجسادهم. ويروى بدل جثث: جيف.

فمرّت غيـر نافرة عليهم تدوس بنا الجماجم والتريبا
إذا أنعلـن فـى آثار قوم وإن بعـدوا جعلنهم طراقا
أجلتها من كل طاغ ثيابه وموطئها من كل باغ ملاغمه
أرى مادون الفرات وبرقة يمشى الخيل فوق الجماجم

يقول المتنبى إنّ الممدوح الفاتح الشجاع، عندما قدم إلى كلّ بلد، يقاتل كلّ المقاتلة بحيث يغطّى كلّ الطرق والسبل من كثرة جثث القتلى،

بحيث إنّ الفرس لايمكن له أن يمشى على الأرض بل عليه أن يمشى على الأجساد وحوافره يتصل بالأجساد عوضا عن التراب.

ومن مثل هذه التصاوير كثيرة فى ديوانه؛ وهدف الشاعر من توصيف هذه الصور، هو مدح شجاعة الممدوح، وتبيين مقدرته فى القتال، وفتحه، وغلبته على الأعداء.

ج) وصف الخيل فى مدائح المتنبى

معظم أشعار المتنبى التى يمتدح فيها عن الخيول هى مدائحه. فأغلب هذه المداح يتعلق بسيف الدولة، وكافور الإخشيدى. يحاول الشاعر أن يصل من خلال وصف الفرس الأصيل إلى صفات وخصائل ـ ممدوحه ـ كالشجاعة، والهيبة، والقدرة، والفروسية فى المعركة، وحضور صاحب الفرس الدائم فى ساحات القتال من ركوب الخيل، والنصر، والكرم، والعفو، إلى غيرها ـ ومن هنا استفاد الشاعر من كلمة الفرس فى مدائحه أكثر مما كان فى غيره.

ومن خلال هذه التوصيفات حينما يصف الخيول، ويبين صفات الفرس الأصيل، حاول فى الحقيقة أن يمدح الممدوح الشريف النجيب الأصيل الذى يزينه أكمل الصفات الإنسانية الموجودة.

ممدوح المتنبى يتسم بالبطولة، والنبل، والشجاعة فى ساحات الوغى، ويفتخر الفرسِ ببمدوح المتنبى حتى إن جميع الخيول الأخرى، تغبط، أو تحسد فرس المتنبى التى يركبها الممدوح.

يقول المتنبى فى مدح سيف الدولة:

وتعيظ الأرض منها حيث حلّ به وتحسد الخيل منها أيها ركبا

ولذلک ترى فرس الممدوح تمرح، وتفخر، وتصهل بالفوز والانتصار بكلّ حرية وفرح لعلمها اليقينى بشجاعة الممدوح، وبسالته، وانتصاره الحتمى.

النتيجة

استفاد الشاعر كلمتى الخيل والفرس، فى مدائحه أكثر مما كان فى غيره. ومن أروع وأبدع الحالات التى تمثل المتنبى فى ديوانه: تصوير حالات المعارك، وحركة الخيول على جثمان القتلى، وهذه هى التصاوير النهائية فى قصائده عادة لأن أكثر استفادة الشاعر من معنى الخيل فى ديوانه يختصّ بتوصيفاته للمعارك، وتجلياتها الخاصة، ومن خلال هذه التوصيفات، يحاول الشاعر أن يصل إلى مدح الممدوح الشريف الشجاع، الأصيل النجيب الذى يزينه أكمل الصفات الإنسانية.

المصادر والمراجع

ابن منظور الإفريقى. ١٩٩٠م. *لسان العرب*. بيروت: دار العلم للملايين.
البرقوقى، عبدالرحمن. ٢٠٠٧م. *شرح ديوان المتنبى*. بيروت: دارالكتاب العربى.